فاتحـة الكتاب

نَسْتَحْمِدُكَ اللَّهُمَّ بما أنت أَهْلٌ له من الحَمْد، ونستهديك بما يُزْلِفُنا إلى رِضَاك، ونسألك أن تَصونَ أفئدتنا عن مَواردِ التَّهْلُكَة، وأن تُبَلِّغنا بعونك مقاصدَ الخير؛ فإنك - تعالى جَدُّك - وَلِيُّ الحمد والهداية، وأهلُ الصونِ والعَوْن. وصَلِّ اللَّهُمَّ على من هو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى سائر رسُلِك وأنبيائِك، والمصطفَيْنَ الأخيار من عبادك وأوليائك.

وبعدُ؛ فإنني حين رجعتُ البصرَ فيما اخترتُه عنواناً لهذا الكتاب توقفت بالمَحْوِ والإثبات غير مرة عند نعْتِي لما ضمنتُه إياه من مباحث **«بالآفاق الجديدة»**. وما كان الترددُ مني إلا عن مخافةٍ أن يُحمل ذلكم على تزكية النفس، وأَنَفةٍ من ركوب مركبٍ اسْتَوطأه بعضُ الباحثين؛ إذ يعمدون إلى عنوانات جليلة، فيدَّارؤون فيها ليُخْفُوا من ورائها مَضموناً نحيفاً؛ له ترجمةٌ تروق بلا معنى، واسمٌ يَهولُ بلا جسم.

غير أني أمضيتُ الأمر - أيها القارئ الكريم - على ما ترى. وحُجَّتي في ذلك أن الجِدّة والجودة لا يتلازمان في كُلِّ حال؛ فَمِنَ الجديد ما هو بالإعراض جدير، ومنه ما ينقض الثابتَ ولا يُثْبِت النقيض؛ وعلى ذلك، فالجهة بين الجدة والجودة منفكة. وإذا صح ما زعمته لهذه المباحث من نعت الجِدّة - وهو إن شاء الله صحيح - فليس في زعمي هذا ما يُلْزِم القارئيها بأن يتلقوها بالقبول والاستحسان، وهم مُفَوَّضون في أمر الحكم

عليها بما يُؤدِّيهم إليه الاجتهاد وتقليب الأنظار. ثم إني أزيد على ما تقدم فأقول: إنه إذا لم يأنس الكاتبُ فيما يكتبه جديداً يُساق، فالأجملُ به أن يَطَّرح الأقلام ويطوي الأوراق. واعتقادُ الجدّة - باطلاً كان أو بحق - ينبغي أن يكون هو الأصلَ الحاملَ على ارتكاب طريق الكتابة، ولا تثريبَ على القارئ - من بعد ذلك - فيما يأخذ وما يدع، وإلا؛ فَلِمَ يَكْتُب الكاتبون، إن هم دأبوا فيما يخرجونه للناس على مواطأة آثار الأغيار، أو صَرَفوا جَهْدهم إلى التحول بكثبان الرمال المهيلة من مكان إلى مكان؟!

وحقُّ القارئ عليَّ في هذه الفاتحة أن أُقدِّم بين يدي هذا الكتاب ما يُعينه على استطلاع ما تشير إليه هذه الأبحاث من آفاق أزعم أنها جديدة في مجالين من مجالات الدرس العربي: أما أحدهما وهو **«البلاغة العربية»** فذو أَرومة صريحةِ النسب في علوم العربية. وأما الآخر، وهو **«الأسلوبيات اللسانية»** فمن العِلْم المستفادِ بالمثاقفةِ مع المُنْجز المعرفي المعاصر.

فأما البلاغة العربية المدرسية فمنذ حَدَّ **الإمام العظيم أبو يعقوب يوسف ابن محمد بن علي السكاكي** (ت ٦٢٦هـ) رسومها، ورَاتَبَ بين علومها أفضت بها الحال إلى مضيق لا تكاد تلتمس لها منه مخرجاً. وحين رأى بعض المجتهدين أن الداء قد أَعْضَل، والشفاء قد عزّ، وجدنا من بينهم فريقاً قد أَخْلَد إلى الأرض واستمسك بالحطام والهشيم، وفريقاً نال منه اليأس فراح يدعو إلى قتل المريض وتغييبه تحت أطباق الثرى، بين عَبَرات الرحمة وزفراتِ الإشفاق. أليس ذلكم هو عين ما يسمونه في زهوٍ زائف واستعلاء غير مستحب: «الانقطاعَ المعرفيَّ» بين الموروث والمستفاد. وأشهد إنها لقالةٌ تكاد تنشق لها الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً، وإنه ليس وراءها إلا

خَصلتان؛ فإما جهلٌ بتراث جليل العوائد، تظاهرَ على إنجازه قومٌ هم من أعلم أهل العربية بالعربية، وإما عبوديةٌ خاشعة تستزلّ أتباعَها ببعض ما كسبوا من قشور الحداثة دون اللُّبوب. نعم، فلا بد لصاحب هذه المقالة من هاتين الخَصْلتين إحداهما أو كلتيهما، وقد عَقِمت أمُّ المنطق أن تلد لهما ثالثة.

إذن؛ فالسؤال هنا هو: كيف نُحدِثُ في هذا النفق المظلم فُرْجةً تنطلق من خلالها البلاغة المدرسية من ضيق الظرف التاريخي المحدود إلى سعة العصر، وتنثال ينابيعها، متخذةً طريقها سرباً في شرايين ثقافتنا المعاصرة لتستعيد عنفوانها، وتكون عِلْماً كاشفاً عن فاعلية النص العربي، بعد ما نال مباحثها ومسائلها من بَعْزَقةٍ وتشعيث قَعَدا بها عند رسوم الشاهد والنادرة والمثال، واحتبساها لتكون شارةً دالة على مهارة اللعب بالكلام وبهلوانية الصياغة؟. وكيف تستحيلُ هذه البلاغة رافداً معرفيّاً ثرّاً يَمُدُّ الأسلوبيات اللسانية ونظرية اللسانيات النصيّة بما يُعِينُ على توطين المعرفة، وتهيئة التربة والمناخ الصالحين لإحياء موات القديم، واستنبات الصالح من ثمرات الجديد؟. ذلكم هو حاصل القول ومناط المساءلة في أمر البلاغة.

وأما الأسلوبيات اللسانية فإن لها حديثاً؛ ذلك أن من أهل الاختصاص من يتوقف في القول بأن للأسلوبيات آفاقاً جديدة يمكن أن تكون محلّاً للاستشراف؛ بل إن السؤال عن هذه الآفاق ربما يعود لديهم إلى الضد، ويحول الجواب عنه إلى قَاطعِ النفي. وتعود بي الذكرى في هذا المقام إلى سنة أربع وتسعين وتسع مئة وألف، حين استضافني الأخُ الفاضلُ والعالم الجليل **الأستاذ الدكتور عبدالله المهنا**؛ لأكون محرراً لعدد من أعداد مجلة رصينة هي «**عالم الفكر**»؛ وكان إذ ذاك مضطلعاً بمسؤولية رئاسة تحريرها.

وقد استشعر الدكتور المهنا خطر القضية؛ فاقترح لذلك العدد عنواناً جاذّاً مرهقاً هو: **«آفاق الأسلوبية المعاصرة»**. كما استشعرت من جانبي خطر اقتراحه، فجعلت تقدمتي لأبحاث العدد جواباً عن ذلكم السؤال الذي يتلجلج في صدور بعض طلاب العلم؛ وهو: **«هل ثمة آفاق للأسلوبية المعاصرة؟»**. وأوردت في التقدمة كلاماً سلمت فيه بوجود التحفظات واستفاضتها في بعض ما كتب الكاتبون، وجعلت من ذلك موضوعاً للرد بما يحسن اقتباسه هنا لشدة عُلْقَته بما نحن صَدَدَه من التماس الجديد في هذه الآفاق، فقلت ثمة وأقول هنا من جديد: إننا قد نشهد على الساحة النقدية في الغرب انحساراً للأسلوبيات، حتى ظن بعضهم أن ذلك ربما يؤذن بانفضاض سوقها وبوار سلعتها، بل إن من أهل النقد من ينكر عليها صفة العلم، ويرى أن اتكاءها على عكازتين من الدرس اللساني والتحليل الإحصائي لا يمكن أن يعجل بدخولها فردوس العلوم المنضبطة. وهذا الكلام يبدو مقبول الظاهر، ولكنه عند أهل التحقيق موقوف الباطن. بيد أنه إن صح، وكان حديثنا عن آفاق الأسلوبية المعاصرة مصروفاً إلى المستقبل بالضرورة = أدركنا مناط المفارقة القائمة بين وجهين من النظر يبدوان متعاندين لا يجتمعان؛ ذلك أن العنوان المُرتضى لذلك العدد من المجلة يثبت للأسلوبيات المعاصرة آفاقاً يشتغل بعض الباحثين باستطلاعها ورصد أفلاكها، ومن ثم كان لا بد من بيان يرتفعُ به الإشكال وتستبينُ المقاصد.

إن المتصفِّح لأثناء مسيرة العلوم الإنسانية منذ مفتتح النصف الثاني من هذا القرن لا شك يَبْدَهُهُ ما امتازتْ به هذه المسيرة في أوروبا من حراك معرفي هائل، ومن صلاتٍ شابكةٍ بين العلوم على نحو أزاح الحدود

الفواصل بينها، وسلّط الأضواء على مناطق التقاطع التي لا يمكن لعلم واحد من العلوم أن يستقلّ بالنظر فيها، وأبرز من الإشكالات المعرفية ما يفوت ذَرْعَ المتَتَبِّع الحريص. وهكذا نسَلَتْ المذاهبُ والنظريات من حَدَبها، ونزت بينها نوازي الخلاف المنهجي، حتى رأينا المذهب ما إن يبدو وقد رسخت دعائمه، وسَمَقَتْ قوائمه إذا هو يفضي إلى ضيق المُضْطَرب، وينتج من الأسئلة أضعاف ما يقدم من جوابات، وإذا الأقلام تتناهبه بالنقد حتى ما يبقى منه على الساحة غيرُ أبعاض وأنقاض. وقد مضى الأمر على هذا الجَرِّ والسَّحْب حتى غدت الإحاطة بدقائق الخريطة المذهبية في الإنسانيات عامة، ودراسة النص الأدبي خاصة، غاية يكاد ينقطع دونها الدرْك.

كان ذلكم، ولا يزال، هو الشأنَ على العُدوة الأوروبية القصوى. فماذا عن أمرنا نحن على هذه العدوة الدنيا؟. الذي كأنه إجماع الناس أنّا قد أُصِبْنا بما يشبه أن يكون دُوَاراً معرفيّاً، انتقلت إلينا جرثومته مع أول مواجهة جبهتنا بها ثقافة الغرب، ولمّا تزل عقابيلها فاعلةً في الجسم العربي حتى زلزلته زلزالاً شديداً. وتقطّعَ أهلُ العلم أمرَهم بينهم، فنهض منهم من يحاول اللحاق بالركب فأصاب حظّاً من التوفيق لم يكن ليكفي إلا لحَلْحَلَة الركود وكسر الجمود، على حين انقطعت ببعضهم السبل دون أهليهم وبني جلدتهم؛ إذ هَمُّوا بما لم ينالوا. أما الآخرون، وكثير ما هم، فقد آثروا السلامة، ورضوا بمقعدهم خِلافَ ركب العصر، حتى صار بينهم وبين منجزاته ما يشبه أن يكون «كمال الانقطاع»، فتواردوا في أبحاثهم على بئر نَزُوح، ونَصَبوا لكل جديد بالإعراض، وهكذا شجر الخلاف بين الفريقين، وجَهِدَ كل فريق أن يجر النار إلى قُرصه، في جدالٍ لا تسمع فيه إلا رجيعاً من القول، ليس في الإعراض عنه فائتة.

وإن تعجب فَعَجَبٌ أن يهتدي أسلافنا - من دوننا - إلى البلسم الشافي من ذلك الدُّوَار المعرفي حين لابسوا ثقافة يُونان، فكانت عيونهم على خاصة معتقدهم ولغتهم وثقافتهم فاستقاموا على الطريقة، وكان أخذهم وَوَدْعُهم كلاهما عنها بيِّنة. أما الخلَف فقد عَدَتْ أعينهم عن كل ذلك تريد زينة العصر، جاعلةً مستحدثاتِ المذاهب كمستحدثات التجميل وصيحات الأزياء مكاناً سُوَى. ونحن عَسِيُّون إن فقهنا مذهب السلف أن نُصْلِحَ آخر هذا الأمر بما صلح به أوله، وأن نعفي أنفسنا من لُهاثٍ ينقطع به النفَس بغير تحصيل للمرتجى من الفوائد.

ليس لنا - فيما نرى - أن نهتف مع الهاتفين في أوروبا بموت الأسلوبيات بما هي منهج نقدي لساني، صارفين أنظارنا إلى ما تلاها على ساحة النقد من أبدال. ولقد عَلّمنا تاريخ العقل البشري أن الأفكار لا تموت بالسكتة القلبية، وأنها إن ماتت في مكان أو زمان بأعينهما حييت في مكان أو زمان آخرين على صورة أخرى، واعتبرْ ذلك فيما كان من تشومسكي مع فكر ديكارت، وفيما كان من فكر الأرسطيين المحدثين مع فكر أرسطو. إن ذروة الأمر وسنامه هما: هل نحن بحاجة إلى الأسلوبيات أم لا؟ والجواب بيّن، فإننا ما قضينا نَحْبَنا بَعْدُ من دراسة الخصائص الأسلوبية لُلغتنا على ملة «بالي» ومدرسته، ولا أدينا لأدبية النص العربي قديمه وجديده حقها من الفحص الأسلوبي الرصين على ملة «جاكوبسون» ومدرسته، ولا نَهَدْنا إلى استحياء تراثنا النحوي والبلاغي والنقدي وشروح الشعر لنحاور به عصرنا الذي نعيش فيه. إننا لم نفعل شيئاً مِنْ ذلك كله، أما هم فقد فعلوا. فَلْيكن لنقادهم إذن ما يشاءون، ولْيَخْطِبْ في حبلهم من بني ملتنا من أراد، فليس لذلكم أن يصرفنا عن باب من أبواب الخير نبرأ بِوُلُوجِه من تبعة التقصير في القيام بأمرِ ما حُمِّلْناه من رسالة.

وإذا صح لدينا - وهو إن شاء الله صحيح - أن الأسلوبيات اللسانية لا تموت، وأنها غدت مكوناً فاعلاً في تحليل بنية الخطاب وأجرومية النص، وأن حظ النص العربي من ذلك كله قليل قليل = صح كذلك أن عطاء الأسلوبيات اللسانية للدرس الأدبي هو وعد غير مكذوب. ومن ثم تبقى للأسلوبيات العربية المعاصرة آفاقُها التي ينبغي أن تستكشف، لا ينال منها تحولات المذاهب النقدية في أوروبا، ولا يضيرها أن ينصُب لمعاداتها من استغشى ثيابه ورضيَ بأن يكون مع الخوالف.

ثم إن ثمة كلمة لا مناص من إيرادها صدد أزمة التواصل العلمي البادية بين المشتغلين بالدرس الأسلوبي العربي وغيرهم من النقاد، وهي أزمة قاطعة لِرَحِم العلم الواشجة، وكابحة لأسباب التحديث والتطوّر. ولعله من طبائع الأمور أن يُلْقِيَ كلا الفريقين بالتبعة على صاحبه. بيد أن الإنصاف يقتضينا أن نكون أدنى إلى التماس العذر لأهل المحافظة، منا إلى تبرئة ساحة دعاة التحديث. إن الدرس الأسلوبي العربي المعاصر يكابد من العلل القادحة ما يكابد على يد بعَض دعاته، وعلى يد من يُسْتَنْزَرُون بِجَنَابهم صدقاً أو دعوى. فليس حقيقاً بالريادة من ينقطع عن قضايا لغته وتراثه، حتى لكأنه يَحرِقُ من ورائه سفائن «طارق». وليس حقيقاً بها من يجعل من الإغراب على القراء بالمصطلح الأجنبي والتترس بأعلام الفرنجة مَيزة يتمزَّى بها على بني ثقافته، وَوَزَراً يحتمي به مِن مواجهة النصوص، ومَن يتصدى للترجمة ونقل الفكر عن مصادر الأسلوبيات في الغرب دون أن تَستحكم أدواته اللغوية والمفهومية، فيخرج على الناس بمُعَمَّيات أجاءت الكثيرين منهم إلى اطّراح أمر الجديد بالكلية. ودَعْكَ من كثرة كاثرة لا ترى منهم إلا كل هَجُومٍ على ما لا يحسن، يحتاز لنفسه أخطر العنوانات

فيورد تحتها أهون الكلام، طلباً لِلْمَثَالةِ بين الناس، وبِدَاراً أن يعالجها العارفون المتلبثون.

أَنَّى لنا - والحال على ما سبق بيانه - أن نستشرف المبلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاقاً طرية تبرأ بها من قوادح العلل، وتقيم الموازين القسط بين التنظير والتطبيق، وتسوق من البراهين ما يصحح القول بحاجة العربية ونتاجها في القديم والحديث؛ لا إلى هذين العلمين الشريفين بخصوصهما بل إلى كل اجتهاد يتغيّا به صاحبه خدمة الثقافة في لسان العرب؟. وأَنَّى لنا أن ندرك أن مصبَّ هذه الروافد قابلٌ لاختلاف المساقي من شكلانية وبنيوية وتفكيكية ونقد ثقافي؛ لا نستثني من ذلك كله رافداً إلا بشروط يأتي على رأسها الوفاءُ بطبيعة الثقافة العربية، ورعايةُ خُصُوصِها ونُصُوصِها، والفرارُ من عدوى العجمة والتذاكي والتهويل على طلّاب العلم وشداته بغية إشعارِهم العجزَ، وحملِهم على إلقاءِ السَّلَم لصفوةٍ مزعومة؟. أقول ذلك، ولي من التحفظات بالميزان اللساني على بعض هذه التوجهات أو جُلِّها ما أسلفت العبارة عن بعضه في غير موطن، وما أستعين الله على بيان سائره في قابلٍ إذا نَفَّس الله سبحانه في البقاء، بيد أن من أصدق ما رُوي عن العرب في أمثالها قولهم: «إذا كثرت المُؤتَفِكاتُ زَكَت الأرض»؛ يَعْنُون بالمُؤتَفِكاتِ الرياحَ التي تختلف مهابُّها فَتُقَلِّب الأرض فيزكو نَبَاتُها.

ويضم هذا الكتاب الذي أقدم له مباحث خمسة:

أما أولها: فجرَّدتُه لتحرير العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، وانتهيت فيه إلى صيغةٍ مقترحة نَرْجِعُ بها النظر في البلاغة

المدرسية وما تغيَّته من تتبع للشاهد والمثال، ومن تقعيدٍ للقواعد التي يَميزُ بها طالب العلم أنواع الطباق والتجنيس، ويُجري بها ما هو تصريحي ومكْنيّ من صنوف الاستعارة، ويستبينُ بها مراتِبَ التشبيه، وغير ذلك من آليات يحفظها الطالبُ عن ظهر قلب، ثم ينساها عن قلب ظهر. ذلك أن هذا التراث الجليل جدير بأن يشكل صيغة موازية لمستويات التحليل اللساني المعاصر؛ أيّاً ما كانت صورة العلاقات المفترضة بين هذه المستويات وسُلَّمُ تراتبها في المدارس اللسانية على اختلافها. ولعلّ من أهم ما حفل به هذا المبحث هو استنقاذ الإمام الجليل أبي يعقوب يوسف السكاكي من الآخذين بخناقه، والزَّارين عليه، والمُحَمِّليه تَبِعةَ الجمود المزعوم والعقم المُدَّعَى، وردّ الاعتبار إلى ثلاثيته التي ضمنها **«مفتاح العلوم»**؛ بما هي أوفقُ الصيغ وأقدرها على محاورة الأسلوبيات اللسانية في تجلياتها ومناهجها المتداولة.

وأما المبحث الثاني: فنستفتح به القول في البلاغة المقارنة بين لغات ثلاث هي: العربية والإنجليزية والروسية، قاصدين به إلى استجلاء ظاهرة التكافؤ النحوي والبلاغي بينها، والكشف عمّا يتيحه الجهاز القواعدي فيها من إمكاناتٍ لتشكُّل الأساليب، وتحقيقِ لغايات الإفصاح والتأثير. وتستبين بها الموائز والجوامع في معالجة مقولة الرتبة عند توارد هذه اللغات على نص واحد هو القرآن المجيد.

وأما المبحث الثالث: فقد أردته استكشافاً لباب جديد من العلم كان ينبغي - في ظني - أن يوضع فلم يوضع؛ وهو ما سميته **«الجغرافية الأسلوبية»**، وعقدت فيه الصلة بين هذا العلم المستحدث وعلم **«الجغرافية اللسانية»**، قياسَ نموذج على نموذج، أو اشتقاق فرع من أصل. ولم يقع لي من

تطبيقات الدرس الأسلوبي المعاصر ما يصلح أن يندرج في هذا الباب من العلم - على ما أراه من إلحاح الدواعي الموجبة لترسمه والإفادة منه - في الثقافة العربية، بما يفوق الحاجة إليه في غيرها من ألسنة أهل الأرض.

وأما المبحث الرابع: فيتضمن توظيفاً لإجراءات الأسلوبيات الإحصائية في السَّبر اللساني للغة الخطاب النقدي، أو ما يمكن أن يقع - بعبارة أخرى - في باب النقد اللساني للغة النقد. وقد اختير لهذه المعالجة طائفة مختلفة الطعوم والتوجهات من النصوص النقدية لـ **«طه حسين»** و**«العقّاد»** و**«النويهي»** و**«يوسف خليف»** و**«أدونيس»** و**«كمال أبو ديب»**، وجعلت من إعمال المقاييس الإحصائية وُصْلةً لتشخيص خصائص هذا الخطاب، واختبار حظه من علمية المعالجة والقدرة على البلاغ.

وأما المبحث الخامس: فقد قام على استثمار الأدوات الأسلوبية والبلاغية ونحو النص لتشكل ملامح صيغة مركبة، نقارب بها نصّاً من أجمل ما أنتجته عبقرية الشاعر الجاهلي القديم، ولنجعله نموذجاً ناطقاً بقدرة هذه الأدوات القديمة والمستحدثة - إذا ما تضافرت وأفاد بعضها من بعض - على استنطاق روائع النصوص القديمة، وتزييف الزعم الباطل بانحلال عراها وافتقارها إلى «الوحدة العضوية»؛ تلك التي سارت بذكرها الألسنة في غابر الزمان.

لقد حاولت ما وسعني الحِوال أن أجعل من هذا الكتاب مؤشراً إلى آفاق جديدة تنتظر أولي العزم من شباب الباحثين، وأن تكون مباحثه الخمسة جواباً على ما أسلفت طرحه من سؤالات ذات خطر، لا أكاد أشك في أنها تراود نفراً غير قليل من أهل الاختصاص، وتحرك فيهم قلقاً معرفيّاً حادّ الوقع، رائع المذاق، واعداً بالخير. وهي سؤالات - على تنوعها صياغةً وفحوى -

يوشك أن يلخصها سؤالٌ أحَدٌ ذو طرفين متكاملين، ألا وهو: كيف نستدبر القول بالانقطاع المعرفي، ونولي وجهنا شطر التراث البلاغي العربي القديم ليتناسخ في جسد الثقافة النقدية المعاصرة، ويستحيل فيه نماءً وزكاء وعنفواناً، واصلين بذلك حاضر هذه الثقافة بماضيها العظيم؟ وكيف نكتسب القدرة على توطين العلم المستفاد من معارف العصر، ونهيئ له بالإدراك الواعي لما نأخذ وما ندع ما يعين على استقبالِ الطَّيبِ الرُّخاءِ من رياحها، واستِنبات الصالح من بذورها، حتى إذا ضمتها أرض ثقافتنا، وجادتها لواقح الفِكَر رأينا هذه الأرض الطيبة وقد اهتزت، ورَبَتْ، وأنبتت من كل زوج بهيج.

الكويت فى التاسع من جمادى الآخر 1427 هـ **كتبه**

الرابع من يوليـــــــو 2006 م **سعد عبدالعزيز مصلوح**